عبد القادر فيدوح
لـ:مجلة أيقونات

حوار العدد

السيميائيات وعوالم المغامرة النقدية

دعني في المقام الأول، أجزل لكم الشكر عن تفضلكم بقبول دعوتنا، وتشريف مجلتنا بهذا السبق. وفي الحقيقة فقد كانت رسالتكم الطيبة معبقة، بعبارات التشجيع ودعما معنويا قويا لمجلة أيقونات.

دعني أولا أبادلك الشعور نفسه بتقديم الشكر إلى مكارم أخلاقكم ،وليس هذا إلا من حسن طيبتكم وتواضعكم[...] وفي الحقيقة ليس لي إلا أن أجدد شكري لكم واعتزازي بما تقومون به من دور فاعل، وبقسط وافر من الجهد؛ لإثراء الحركة الفكرية في الساحة الثقافية لبلدنا الجزائر، الحبيبة.

ولعل قبولي لهذه الدعوة هو من قبيل الواجب ليس إلا، وإلا كنت ابنا عاقاً لوطني الذي قدم لي أهم شيء في حياتي هو الاعتزاز بالانتماء إليه ، هذا الانتماء الذي يعلو شرفاً ، ويزداد مكانة كلما صادف وجودي في مناسبة خارج الوطن إلا وأشعرت جلسائي أني من بلد المليون ونصفه من الشهداء ، أقولها بملء في، مزهواً بمكانة تاريخ بلدي، وأمجاد أجدادي، والجاحد من ينكر هذا التاريخ الماجد، وفي هذا عبرة للتجاوب مع يراه زملائي، وأنا خارج الوطن، رغبة في الإسهام بزرع بذرة حب لوطننا المفدى بالنفس والنفيس .ودعني أقول لك إنني أنا من شرُفَ بمنزلة وجودي في مجلتكم الغراء. وبمجلتكم فخرت، كوني حصلت منكم على هذه المكانة بهذه التجربة المميزة ، لعل كل ما أتمناه هو أن نكون عند حسن ظن المتلقي.

أما كون مجلتكم " أيقونات " تستحق التشجيع بحسب ما ورد في السؤال، فعلى الرغم من أحقية ذلك، شأن كل مبتدأ لأي عمل في أوله، إلا أني اعتبر رأيكم هذا جاء من قبيل التواضع – في تقديري – لأن مؤشراتٍ كثيرةً توحي بالإقدام على إنجاز عمل ناضج في بدئه، وليس أدل على ذلك ممن يرأسها، وبأعضاء هيئة تحريرها الفاعلين؛ لذا أتمنى التوفيق والنجاح لمسيرة هذه المجلة في أيقوناتها الدالة.

لنعد إلى البدايات، تحديدا إلى تلك الطفرة العلمية، التي شهدتها ساحة النقد الجزائري، بظهور كتاب "دلائلية النص الأدبي". فما مدى التحولات التي أسس لها ظهور هذا الكتاب في ساحة النقد الجزائري؟ وهل كان نقطة تحول في المسار العلمي والأكاديمي للأستاذ عبد القادر فيدوح؟

لا يخفى على أي قارئ عربي أن السنوات التسعين من نهاية القرن العشرين هي البداية الأولى التي كانت تتمخض لتلد عهدا جديدا – وأنا هنا أتحدث عن الساحة االفكرية في الوطن العربي على

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وجه التحديد – حين أصبح المعطى الفكري يشهد سياقا جديدا في التعاطي مع المعرفة، فرضته مناهج جديدة تدعو إلى تجاوز كل ما هو ثابت ، والوثْب على كل ما هو سائغ، رغبة في التجاوب مع مستجدات العصر، واستقراء الواقع؛ لاستشراف المستقبل في تغيراته المنتظرة ، وتحولاته المخطط لها ، وكيفية مواجهته ثقافيا ومعرفيا .

وإذا دققنا النظر إلى أن ما وقع في سنوات التسعين من القرن الماضي، كان بمثابة تمرد على كل ما هو سائد على جميع الأصعدة ، وأنا هنا لست في معرض تحليل أسباب هذا التحول الجذري لواقع الحال، وما هي مدلولات تغيره، ومن أين، ولا كيف بدأت ، فذاك أمر قد يخص ذوي الشأن من المتخصصين في مجالات دواعي هذا التغير أو ذاك، أما الذي يخصني فهو الجانب المعرفي ضمن سياق هذا التحول في إجراءاته المفهومية الدالة التي أجّجتها مجموعة عوامل، منها اختلاف المصالح، واختلاف المفاهيم، والرغبة في الهيمنة، والسعي إلى التحرر من كل قيد، وإعطاء الطابع الشمولي لجميع مكونات الدافع الحضاري، والحاجة الملحة إلى الكشف عن الشيء بما هو عليه عن طريق العقل، والاستقراء، والتجريب.

أمام موجات التغير – هذه – وجدت نفسي – شأن كل مثقف – في مواجهة منعطفات تؤشر على الجِدّة، كان أحد أهم انعكاساتها على الثقافة على وجه العموم . وإذا انطلقنا من فكرة أن الثقافة تعبير عن الحياة ، وأن هذه الحياة في تغير مستمر بما تحتويه من مضامين معرفية ، فإنه كان لزاما على المتتبع لهذا الشأن أن يواكب هذه المستجدات، ومن هنا جاءت المناهج الحديثة لتكشف عن غموض كينونة الحياة في الجوانب الثقافة في مطلبها، والنص الأدبي جزء من هذا المَرام. فلعل مثل هذه الدوافع هي التي جعلتني اتعاطى مع تأطير النص الأدبي في ضوء مستجدات العصر، هذه المستجدات التي لم تعد تحدها فواصل ولا حدود، من منظور أن سر النص خرج عن السياق المألوف .

وفي خضم ذلك وجدتني أحاول، ما استطعت، أن أفيد مما كانت تدعو إليه ما بعد الحداثة باعتبارها حالة من فقدان المركزية ، تسعى بجرنا إلى تبني مرام صرخة الدال، والتعامل مع الوعي على أنه بنيات مفتوحة ، فما كان مني إلا أن أتجاوب مع هذا المعيار الوظيفي الذي تتشكل من خلاله مكونات عالم النص الأدبي، والثقافي منه على وجه العموم .

أضف إلى ذلك رغبتي الملحة – دوما – في طلب الجديد ، وإطلاع طلابي على كل ما هو مستجد؛ الأمر الذي من شأنه أن يعلي من سلطة التلقي، أو ما انتهت إليه الدراسات من مستويات متنوعة، ذلك ما أسند عزيمتي إلى الخوض في تجربة تسعى إلى فك النظام الشفري للنص، ولم أكن أعرف ساعتها أنها تجربة سجلت وقع السبق في راهن الدراسات للأدب العربي الحديث، مع مراعاة كتابات أستاذنا الدكتور عبد الملك مرتاض، كتاب الدكتور محمد مفتاح " في سيمياء الشعر الأدبي القديم"، أقول لم أكن أعرف ذلك إلا بعد أن اطلعت على البحث الذي أعده غريب أسكندر لنيل درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات المرموقة في الوطن العربي في بحثه الموسوم :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي [المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ، 2002] حيث كشف ، بعد تحرٍ دقيق أن كتاب " دلائلية النص الأدبي " من الكتب الأولى في حقل الدراسات السيميائية ، ولك أن تقرأ ما جاء في تمهيد هذا الكتاب ، والمبحث الثالث من الفصل الأخير المتعلق بالسيمياء والتأويل الذي خصه صاحبه لدلائلية النص الأدبي .

أما عن مدى التحولات التي أسس لها ظهور هذا الكتاب في ساحة النقد الجزائري، فسوف أترك هذا للقارئ ، وبالتحديد لحركة النقد في الجزائر ، فحينما نرصد حركة النقد الأدبي في الجزائر سنلحظ تأثرا مباشرا، بخاصة ما أسسه أستاذنا الدكتور عبد الملك مرتاض في حقل السيميائيات من خلال كتاباته الكثيرة ، وعلى رأسها آنذاك كتابه: [ا- ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي ؟) لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر، ط1، 1992 ،] فإذا كان هناك من فضل فالأولى به أستاذنا، أطال الله في عمره الدكتور عبد الملك مرتاض الذي كان له التأثير المباشر على دلائلية النص الأدبي، أما كون هذا الأخير حظي بسمعة لافتة، وبوقع جالب ومثير للجدل في حينها ، [وأنا هنا أشير إلى الندوة التي خصصت لي في قصر الثقافة بوهران بعد صدور الكتاب مباشرة ، والتي أدارها صديقي المرحوم بختي بن عودة، حيث أثير جدل واسع ـ وما لقيته من أذى معنوي من بعض الحضور ـ على دوافع اختيار بعض الشعراء دون سواهم. أقول : لعل ذلك نابع من كونه تناول مجموعة من قصائد الشعراء الشباب، بخاصة ما قيل منها في تجمع شعراء الجزائر المعاصرة الذي انعقد بوهران على مدار ثلاثة أيام 24ـ25ـ1993/01/26 تحت شعار " نحو شعرية مفتوحة " ولعل هذا الشعار هو ما شجعني على أن أتناول بعضا مما قيل في هذا التجمع بما يتناسب مع ذوق الجيل الجديد من طرائق جديدة ، فكان كتاب " دلائلية النص الأدبي " تجاوبا مع مستجدات الدراسات الحديثة ، وتلاحما معرفيا مع أنساق تفكير الجيل الجديد. ومن هنا كان السبق على مستوى خارطة النقد الجزائري نظير خارطة الحركة الإبداعية للأجيال الصاعدة التي تبنت الذات منطلقا لها في رؤاها، وبمرجعياتها الجديدة،وهو ما تطرقت إليه في الكتاب، وكأني بذلك أردت أن يكون كتاب "دلائلية النص الأدبي" نابعا من عمق مشاعر الجيل الجديد في نزوات أفكاره التي بدأ يبثها في ثنايا إبداعه، مع ما أصبح يعرض من تجارب جديدة، والدخول في رصد فني نزيه قائم على محاورة الذات. وتبعا لذلك الوقع، كان علي أن أتجاوب مع الموقعة الفاصلة بين ما كان ، وما أصبح عليه واقع الحال؛ أي بين ما كان سائدا من وعي تربع على عرش التيار الإديولوجي أمدا طويلا ، وبين ما كانت منه الأفكار تَحيد ، بعد أن زاغت الأنظار عن مستوى التفكير الإيديولجي الذي لم يعد فيه نفع للجيل الجديد.

ولعل هذا ما شجع كثيرا من النقاد عندنا ـ من دون ذكر أي منهم لكثرتهم ، وحتى لا أنسى أحدا ، مع تقديري ومحبتي لهم ـ على تعزيز المبادرة لتأخذ نصيبها من المثابرة ، وأنا هنا ما زلت أقول كل ذلك بفضل أستاذنا عبد الملك مرتاض الذي يعد رائدا بكافة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الاستحقاقات حين أسهم في نفْثِ روح النقد العربي الحديث رغبة في التجديد والخوض في المناهج المعاصرة وعلى رأسها المنهج السيميائي الذي طبقه على كثير من النصوص.

وهكذا فإن ما يمكن أن نعتبره سبقا منهجيا في الدراسات التطبيقية على الشعر الجزائري المعاصر من خلال كتاب دلائلية النص الأدبي لا يعدو أن يكون مبادرة نابعة جَهد كان يدرك في وقتها حدوده، تلتها ثمار طيبة ما زالت تتضافر بشكل مطرد ، بعد أن استتب المنهج السيميائي في أرجاء خارطة الأدب العربي الحديث تباعا.

وإذا كانت هذه المبادرة لم تأخذ نصيبها الأوفر من الانتشار في حيز النقد العربي الحديث ـ في حينها ـ فلذلك أسباب كَلْمَى ، كان يتنهد فيها العلم عندنا من قلب كليم ، لفرض الحجر على التسويق ـ آنذاك ـ سواء بقصد ، أو عن غير قصد.

وفي مثل هذه الحال لا عجب ألا تتبوأ المعرفة، مما ينتج في الساحة الجزائرية ، مكانتها في سوق الكتاب العربي، ما دامت التعثرات قائمة بأذيال الخيبة ، ولم تبلغ هدفها بعدُ من الحضور المكثف في المعارض الدولية للكتاب، ناهيك عن الكبوة المؤلمة لتقنية طبع الكتاب في عدم جودته ، حيث لم تصل ـ هذه التقنية ـ بعد إلى المكانة الناضجة التي من شأنها أن تنافس سوق الكتاب العربي، حتى لا أقول العالمي.

أما كون كتاب " دلائلية النص الأدبي " كان نقطة تحول في مساري العلمي والأكاديمي ؟ فلا أنكر ذلك وقد ذكرت ذلك في بداية مقدمة الكتاب نفسه حين اعتبرت ـ فيما معناه ـ أن التعامل مع الدراسات الجديدة عبارة عن نزهة على تخوم حقول المعرفة من منظور أن دينامية البعد الدلائلي للتحليل المتنامي في نسيج الحداثة، وما بعدها، جاء بديلا لما ساد في اعتقادنا أمدا طويلا من البحث عن معنى الشيء، إلى تفسير النص بحسب الحقيقة، أو بالتفسير الفقهي لنص . أضف إلى ذلك ما لقيته من تشجيع من قبل بعض الباحثين كان له الدور الأسمى في السير قدما آنذاك؛ الأمر الذي أثمر كتابا موازيا لكتاب دلائلية النص الأدب تحت عنوا "الرؤيا والتأويل ـ مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة" . ناهيك عما جنيته من فوائد جمة ـ كان لها الأثر الإيجابي ـ من قبل بعض المنتقدين لهذا الكتاب . وليس هذا فحسب، وإنما عوامل التشجيع كثيرة، ودعني هنا أسرد عليك طُرفة مفاجئة لي في حينها، عندما التحقت بجامعة البحرين ضمن أعضاء هيئة تدريسها، وفي الأسبوع الأول جاءتني دعوة لإلقاء محاضرة في مؤسسة ثقافية مرموقة وبعد تلبية الطلب، وبعد انتهاء المحاضرة ، والشروع في النقاش من قبل الحضور تفاجأت بشيء لم أتصوره على الإطلاق من أحد الحضور يتصفح كتاب دلائلية النص الأدبي ويقرأ منه فقرة يستوضح فيها ما بدا له مختلفا عما جاء في المحاضرة ، لم يحيرني سؤاله وما بدا له من اختلاف بقدر ما أدهشني كيف وصل إليه هذا الكتاب، مع أن المدة الزمنية بين نشر الكتاب ووجودي في البحرين قليلة جدا، قياسا إلى عامل التواصل الثقافي ـ شبه المنعدم ـ بيننا وبين المشرق (من قبلهم وليس من قبلنا) ، وازدادت حيرتي أكثر، وفي الأسبوع نفسه

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من وصولي عندما أحضر الدكتور منذر عياشي الكتاب نفسه لأكتب عليه كلمة إهداء مع أني لم أر الدكتور منذر عياشي إلا بعد أن جمعت بيننا البحرين ، ولا أكتمك أن ذلك كان مدعاة فخر حينها لباحث كان يحرث في بحر وهران . وإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به غريب اسكندر في كتابه ـ السابق ذكره ـ فليس لي إلا أفتخر بالجامعة الجزائرية التي شرُفت بها قبل أن تعزز مكانتي بوجودي في الساحة الأدبية بما يمكن أن أرد لها جميل ما قدمته لي من انتماء مثمّن على مختلف الأصعدة .

تقدم المعرفة السيميائية نفسها اليوم، على أنها علم ومنهج ونقد للعلم بل العلم كله، كما ترى جوليا كريستيفا. ألا ترون بأن هذه الثورة العلمية مؤهلة داخل الاقتصاد العام للعلوم الإنسانية، لاستحداث إمبريالية جديدة تنهض على أيديولوجيات مقولة العلامة؟

قبل أن أجيب دعني أقول لك إننا نعيش عصر نظرية العلامات. نعم، هذه حقيقة ملموسة يشهدها الوعي المعرفي في نقلته النوعية المرتبطة أساسا بمدى الكيفية التي ينبغي له أن نتعامل بها مع هذه النقلة في ظل تجزئة الواقع أيا كان موضوعه، وتقسيم الملتحم بكل أشكال التقطيع إلى حدِّ التبرّم مما آل إليه الوضع الإنساني.

حقيقة، إن ما تقدمه الدراسات السيميائية للمعرفة هو المفترض في جدواه للمنظومة المعرفية الجديدة التي تعتمد على خلق عوالم ممكنة، من خلال بحثها عن فهم دقيق لواقع الحال المعبر عنه في النص المعرفي بوصفه الرابط الوثيق الصلة بين الكلمة والمحيط، أو الفكرة المُعينة على تقريب الواقع ، وفي حال عَرضت السيميائية نفسها بديلا للمنهجية المعهودة، وإطلالها على ما هو مبعث للنفع ، حتما ستنشأ علاقة أكثر ديناميكية بين النص وعالمه بما يشترطه السبق الإبداعي في تصوره التخييلي، من دون إهمال المرجعية الفكرية، بخاصة الموضوعية منها . ولعل هذا ما نلمسه حقيقة في عمق التحليل السيميائي الذي أصبح يُعنى ببناء عالم جديد، يقوم على توسع رقعة التفكير ، وتقدم مجال التحليل، وتنوع ألوان الاختلاف في الرأي، وتباين المفاهيم في الطروحات .

كما تقدم السيميائية نفسها على أنها البديل الأمثل لنشر الهوية المعرفية التي يؤمنها الرأي المختلف ،ولعله الدور نفسه الذي تشترك فيه مع كثير من أوصاف النظام العالمي الجديد الماثلة تحديدا فيما تدعو إليه العولمة، وما بعدها، في هويتها الاقتصادية ، لذلك لا نستغرب مما تسعى إليه مفاهيم السيميائية المعرفية من تغيير لخصائص منظومة الحياة المألوفة، أو العالم المتحقق، إلى منظومة أخرى أكثر حيوية تستند إلى خيوط دقيقة بواسطة التعالق ،والتشابه ، والتباين ، ضمن سياق سائر الظواهر الثقافية الأخرى .

صحيح أن هناك من يفصل المعرفة السيميائية عن العالم المتحقق ، كما هو الشأن بالنسبة إلى إيكو الذي يرى : أن السيمولوجيا لا تهتم بقضية "الواقع واللا واقع"، أي بمطابقة العلامة للواقع، وإنما تكمن القيمة السيمولوجية في العلاقة بين الدال والمدلول دون العبور

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إلى علاقة أخرى، هي بين الدال والمدلول من جهة، والشيء الذي تشير إليه العلامة من جهة أخرى. وفي هذا اختلاف بيّن مع ما رآه دي سوسير في تعريفه للسيميويولوجا من أنها عبارة عن علم يدرس الإشارات أو العلامات داخل الحياة الاجتماعية، مما يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة.

ومن هذا القبيل نرى أن كل علامة تدرس خارج أحضان المجتمع هي علامة خارج العلوم الإنسانية والطبيعية، أو كما عبر عن ذلك بيرس Ch. S Peirceفي قوله "ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في هذا الكون كالرياضيات، والأخلاق.. وعلم النفس، وعلم الصوتيات، وعلم الاقتصاد.. إلا على أنه نظام سيميولوجي" ومن هنا تتحدد وظيفة السيميولجيا تبعا لرؤية كل عالم سواء من حيث الوظيفة المنطقية للعلامة، أو من حيث الوظيفة الاجتماعية لها، وفي كلتا الحالتين في نظري يجمعهما عامل ابستيمولوجي يسعى إلى فهم الذات الإنسانية في سياقها الثقافي ضمن حصيلة سلوكيات المجتمع في مظاهر وجوده.

إن البحث في عوالم جديدة وفق متطلبات أنظمة العلامات يقودنا إلى ظاهرة التأويل بوصفه إنتاجا دالا للمعنى، بالإضافة إلى كونه مدخلا أساسيا لاكتناه عالم النص الذي هو بالأساس خطاب في جوهر معنى الحياة.

هناك إشارة لافتة لابد من ذكرها في هذا الصدد تتعلق بمستقبل السيميائية، حيث أصبحت في نظر الكثير من الباحثين محل شك وريبة في ظل مستجدات العصر، وفي ظل ردة كثير من الباحثين الذين كانوا متحمسين للمنهج السيميائي نتيجة التأثيرات السلبية التي أصبحت تهيمن على شرود المعنى وانفلاته من عِقال سَمْتِ النظام الاجتماعي في تركيبته الثقافية ، ونظرا إلى الطموس، والانمحاء، الذي آل إليه المعنى بعد أن أُدخِل في غياهب الافتراضات ، وتباعد الاحتمالات، حيث التخريجات السيميولوجية اللامتناهية في دَهْمتها الدلالية، بعد أن ربطت النص بالواقع في تجريبه وتفكيكه؛ الأمر الذي أدى إلى التقليب المفرط، والخروج عن المرام المراد لتوفير نعومة للحياة.

وإذا انطلقنا من الفكرة الشائعة " كل شيء يتجاوز حده ينقلب إلى ضده " نكتشف أن تبني المنهج السيميائي التفكيكَ الدلالي المسرف، وإخراج المعنى المسهب في التفاصيل، والمفرط في التجاوز، قد يُخرِج المنهجَ السيميائي عن المسار الذي حدده المنظرون الأوائل، وإدخاله في "معنى اللامعنى" بعد "إطلاق الحبل على الغارب" في البحث عن الغاية، بوصفها مكونا من مكونات المعنى الإنساني، وخطوة أساسية من خطوات المنهج المنير؛ لرؤى الكون في نظامه المتوازن الذي من شأنه أن يبحث عن مفتاح الوجود الإنساني، حيث لم يعد لمنتسبي المنهج السيميائي ما يكبح الخروقات المتجاوزة.

أما الشق الأخير من السؤال المتضمن إمكانية استحداث إمبريالية جديدة تنهض على إيديولوجيات مقولة العلامة، فإني أستبعد ذلك لاعتبارات كثيرة، من أهمها ما يجري من القواعد العملية للممارسة السياسية، ومن آخر ما تتناوله الأخبار، ولك أن تتعامل معها بما

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يروقك من تفسير على نحو ما هو معروض – في الأونة الأخيرة – من دبلوماسية إيرانية ، ومن واقع أحداث العراق ، ومذبحة غزة 2008 على وجه الخصوص ، وبعد الانتخابات الأمريكية 2008 ، وما يجري في أفغانستان، وما تقوم به بعض المنظمات السياسية مثل منظمة جي ستريت J Street ، أو أيباك AIPAC بوصف هذه الأخيرة أقوى لوبي صهيوني يضغط ويتحكم بالسياسة الخارجية الأمريكية ، كل هذه الأحداث وغيرها كثير يغير من مجريات البنية العلاماتية للرؤية البشرية. ومن هنا لم تعد مقولة العلامة ترفا فكريا في نظري، بقدر ما أصبح التعاطي معها نابعا من قوام التغير في المنظومة الفكرية في جميع مجالات محركات التركيبة الذهنية التي أصبحت تضع كل فعل مهما كان نوعه، حتى لو كان سياسيا، أو عسكريا، ضمن إطار المنظومة العلاماتية؛ بغرض توفير الجانب الدلالي في عملية صنع القرار، عبر كل السبل، بما فيها الحيل التي تغلفها العوارض الدالة، الناجمة عن حياة اللغة، كون الوجود البشري جدير بمراوغته عبر اللغة ، وإلا كيف نفهم عدم توصّل المفاوضات بين العرب والإسرائيليين إلى حل سلمي حتى هذه الساعة ، وهذا ناتج من الإخفاق الذي منيت به السياسات في احتوائها أهم الأحداث بلا موضوعية، والتفافها حول هيمنة سيميويولوجيا اللغة، بإدخال الطرف المستضعف تحت طائل من الطموحات المتتالية عبر اللغة التي تجرك إلى الانفلات من القبض على شيء ملموس، والدخول في متاهات ومسيرات دلالية مظلمة الأنفاق . هذه هي أساليب إجراءات الإيديولوجية الجديدة لمقولة العلامة التي أصبحت تستند إلى الخطاب اللغوي الأجوف بوصفه قراءة لوجود حياة بلا جدوى ، من كل ما يجري فيها سياسيا، واقتصاديا في أزماته المتوالية؛ الأمر الذي أدخل البشرية في نفق مظلم، بخاصة إذا أدركنا، اليوم، أننا نعيش عالما غير قابل للفهم، كما أصبحت فيه الحقيقة سرا ملغزا، عديمة المنال ، ويحضرني هنا مقولة نيتشه في البحث عن إرادة القوة التي لا تنتهي ، بفعل نص التضليل ، وهذا يعني أن العالم في منظور هيمنة إيديولوجية مقولة العلامة هو اليوم نتاج أشياء، وليس نتاج أفكار ومبادئ، من منظور أن سر النص العلاماتي خرج عن مساره الطبيعي، وأصبحنا نعيش على فتات متون نص الهامش .

> **ثمة في واقع الأمر، شبه قطيعة بين فكر العلامة في التراث العربي وواقع الجهود العربية في الخطاب السيميائي المعاصر. هل هذا طبيعي أم أننا لا ينبغي أن نحمل التراث ما لا يحتمل؟**

سبق أن واجهت، بما يشبه، هذا السؤال، واعذرني أن أعرض عليك ما قلته في حينها بما معناه : هل يعقل أن نحاسب شاعرا جاهليا عربيدا ، سوّارًا – تسور الخمر في رأسه – على أنه كافر !.. مع مراعاة مصطلح [كافر] لما له من دلالة بعد مجيء الإسلام.

وسبق أن تناولت هذا الموضوع بالتفصيل في مواضع كثيرة... ويكفي أن أحيل القارئ إلى كتابي الأخير " إراءة التأويل – ومدارج معنى الشعر " الذي

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صدر في سوريا منذ ثلاثة شهور، سيجد فيه مبحثا كاملا عن " ماهية العلامة في التراث النقدي " ومع ذلك لا يمنع من أن أشير إلى بعض المحطات في تراثنا النقدي على نحو ما جاء من إمام الحرمين [الجويني] قوله : "والدليل هو المرشد للمطلوب لأنه علامة عليه" ، وهكذا يكون الدليل عند الجويني هو العلامة . وفي قول الغزالي: " لا متكلم إلا هو محتاج إلى نصب علامة لتعريف ما في ضميره"، وكذا في رأي فخر الدين الرازي : "إن المعاني التي يحتاج إلى التعبير عنها كثيرة جدا ، فلو وضعنا لكل واحد منها علامة خاصة لكثرت العلامات بحيث يعسر ضبطها ، أو وقوع الاشتراك في أكثر المدلولات ، وذلك مما يخل بالتفهيم" ، أما ابن قيم الجوزية فقد استوقفه قوله تعالى " { إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } " ليرى أنهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما وهي العلامة" ، ثم نتوقف عند قول الإمام الخطيب البغدادي "إن الفقهاء يسمون أخبار الآحاد دلائل ، والقياس وكل ما أدى إلى غلبة الظن سموه حجة ودليلا ......فأما ما يفضي إليه بغلبة الظن فليس بدليل في الحقيقة ، وإنما هو أمارة ." والأمثلة على هذا النحو كثيرة .

لعلك ترى معي في هذه المحطات أن كثيرا منها يتجاوب مع منظور العلامة في النظريات الحديثة . أما ما يمكن أن نعتبره قطيعة مع الجهود المبذولة من بعض الباحثين المعاصرين فلا أظن ذلك، إلا من باب أن البحث في هذا المجال، بما تستدعيه المفاهيم الجيدة، يعد إقحاما بما لا تحتمل الآراء القديمة أن تساوق الآراء الحديثة حرفيا، بحكم المقومات المتغايرة بين الحضارات ، بخاصة ما تشهده الحضارة الجديدة من تحولات معرفية مطردة ، وما تبناه ورثة الحضارة القديمة من إسهامات تعد البذرة الأولى لثمار طيّبة، تمتع بها الأحفاد من لقاح يقوم مقام المصدر .

> يجمع الباحثون والأكاديميون العرب، حول الغياب الواضح لتعليمية السيميائيات، فمع تضخم المكتبة العربية بالإسهامات البحثية والترجمية، لا يزال القارئ العربي يواجه صعوبة بالغة في التحصيل ويعانى هوس سوء الفهم، إلى درجة أننا نقر اليوم بتفشي عقدة معرفية تجاه السيميائيات، ونفور رسخته ظاهرة استفحال أزمة المصطلح. فهل نحتاج اليوم إلى إعادة هيكلة الخطاب العلمي للسيميائيات العربية؟

واضح من سؤالك أنك تخص نوعا معينا من القراء لسوء الفهم السيميائي، وفي بيئة ثقافية دون أخرى، وهذا يجرنا إلى ماهية التعليم في أوطاننا العربية، حيث النسق التلقيني يضرب أطنابه من حبال الأخبية المعقدة . وحتى نفهم مسار التوجه الجديد من أنظمة التعلّم التي أصبحت بديلا لنظام التعليم، علينا أن نغير من واقع حال المنظومة التعليمية التي تعتمد التقين مسارا لتعاطي المعرفة، في مقابل نظام التعلّم الذي يعتمد نهج الحوار المتبادل بين الطرفين [المتعلّم والمتعلّم] أضف إلى ذلك أن نظام التعلّم يتيح القدرة على صياغة ما ليس مصوغا ، وأن الفهم في منظوره لا يعني طلب اليقين، بل هو الذي يضع كل يقين موضع سؤال. أعتقد ، حينذاك نصل إلى التجاوب مع ما

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يُطرح فكريا على مستوى المنظومة المعرفية في الألفية الثالثة على وجه التحديد. نحن بحاجة إلى إعادة تأسيس الوعي المعرفي، وزرع بذور التساؤل، انطلاقا من السؤال السقراطي الذي يقوم على الفحص، وليس من المنطق الأرسطي الذي يقوم على العرض والنقد معا . كم نحن بحاجة إلى توجيه أبنائنا إلى نسق نظام التعلّم؛ بغرض تجاوز النص [الحياة] في تحديد معناه، والتعرف إلى قدرة الجيل الجديد على النفاذ إلى المعنى المنثني في شكل أقنعة نيتشه Nietzsche. حينذاك، لن يكون لمثل هذا السؤال موقع من العلامة الدالة في واقع الحال.

لا بأس أن أصر على أن إعادة هيكلة الخطاب العلمي للسيميائيات العربية - شأنها في ذلك شأن المعارف الجديدة - مرهون بإعادة هيكلة المنظومة التعليمة من الأساس ، وقلب مناهجها قلبا جذريا ، حيث باتت - في وطننا العربي - تكرس المعهود من الطرائق التعليمية لحاجة في نفسها، لعلها تتقصدها ، والضمير الحي منها براء، والعقل الناضج منها خَلَاءٌ ، وليس ما أقوله في هذا الشأن إلا بما نستشفعه من مثل مقولة صلاح عبد الصبور: " ينبوع القول عميق ، لكن الكف صغيرة" لتكون لنا هذه المقولة شافعا لواقعنا التعليمي المكلوم. فبينما نطمح إلى نظم التعلّم الجديدة بغرض العثور على مفتاح الوجود الأمثل، لا تطمح النظم التربوية التعليمية في أوطاننا العربية إلا على رسم خارطة لبنايات جامدة - تسمى مجازا مؤسسات تعليمية - تضم طيورا من دون أجنحة.

> **لا شك في أن لسيميائيات النص، سهم وافر في تحييد المقولات النقدية، والتحول عنها إلى توظيف المفـــاهيم التحليلية. فـــإلى أي مدى تكون السيميائيات قد أسهمت في تحسين الآلة التأويلية؟ وإلى أي مدى أسهمت جهودها النظرية في تقريب فهمنا للجنس الأدبي، علما بأن النجاح المشهود للسيميائيات السردية ظل ولا يزال على حساب السيميائيات الشعرية؟**

هذا صحيح ، وكما سبق أن قلت إننا نعيش عصر العلامة، فإننا أيضا نعيش واقع تداخل المناهج ، ولعل أكثر المناهج التصاقا ببقية المناهج الأخرى هو المنهج السيميائي ، ولنا أمثلة كثيرة من الذين لم يحصروا أنفسهم في منهج معين وعلى رأسهم: دريدا ، وإيكو ، بارت ، باشلار، وغيرهم كثير، وأنا هنا أستثني النقاد العرب لفقد النظرية النقدية العربي الحديثة، وتبعا لذلك تأتي الفرضيات التي يمكن استنتاجها من هذا المنهج أو ذاك لتصقل جهد المحلل أو الدارس، ومن هنا تتداخل المناهج . ولعل المنهج التأويلي أصبح ملازما إلى حد ما مع المنهج السيميائي لاعتبارات كثيرة من أهما ابتعادهما عن الأحكام الجاهزة، وكلاهما يرفض أن يكون أسير الرؤية الثابتة؛ الأمر الذي أفضى إلى تعزيز لحظة التأمل والتفكير في خلق بُعد تصوري، يستمد قوته مما يمكن أن نطلق عليه " سيماء التناثر " أو " سيمياء التوالد " وما ينجم عن ذلك من أبعاد تأويلية من حيث الطرح والرؤيا ، أضف إلى ذلك أن كلا من السيميائية والتأويلية يميز البين من

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الخبيئ ، وكلاهما يكشف ثنِيات النص المتعددة، وطبقا لذلك يكون المحلل في أي من هذين المنهجين في حالة اشتهاء متبادل بين محمول النص ومأموله، في ضوء ما يبرر جمالية النص بمسافات استيطيقية تفصل شفرات النص المتعددة ، وتقتل جمود المعنى المكرور.

أما أن تكون السيميائية قد أسهمت في تحسين إجراءات الآلة التأويلية ، فلعل الفرضية تطرح نفسها بتحويل السؤال على وجهه الثاني ، ونحوّله ظَهراً لبطْنٍ على هذا النحو : إلى أي مدى أسهمت التأويلية في تحسين الآلة السيميائية ، ولا ضير في ذلك، ما دام المنهجان في إجراءاتهما وجهان لتشكلات النص الدلالية، والكشف عن عملة اللامقول في النص.

أما بخصوص دور الجهود النظرية السيميائية في تقريب فهمنا للجنس الأدبي، وتعزيزا لهذا التساؤل يمكن النظر إليه من زاوية أخرى على هذا النحو : إلى أي مدى يمكن أن تعي القراءة السيميائية الأبعاد الجمالية في النص ؟ أقول لعل المتتبع لأساليب طروحات ما بعد الحداثة يكتشف أن في مثل هذا الطرح أمرا طبيعيا، على اعتبار أن دورها ينحصر في ذلك تحديدا قبل أن تمدنا بطرائق منهجية، وحتى في هذه الحالة تفتح القراءة السيميائية النص على مسوغات رائية بإطلالها على معارف مختلفة ومتنوعة ، وتكشف ما يواريه ، وتبعث فيه روح التجديد في إطار علاقته بغيره من باقي المعارف الأخرى ، وفي مثل هذه الحالة نحن بحاجة إلى أمرين ، أولهما يتضمن الكيفية التي من خلالها نولد الدلالة ، وإبانة الشفرة التي تجمع بين الدال والمدلول ، والأمر الثاني يتعلق بالنوعية الإجرائية التي تربط العلاقة بين الأنساق والأفكار، مع الأخذ في الاعتبار البناء السيميائي [التحليلي] للانزياح التداولي.

> لا يتوقف الرهان التحليلي للسيميائيات عند حدود النص، الذي يقترن بالانتظام الشكلي للكلام المتجلى بالكتابة، ولكنها تطمح في المقابل، لبلوغ الخطابات ومن ثم بيان فعل الأنساق الدالة لسانية كانت أو غير لسانية،أدبية أو غير أدبية، فنية أو استـــعمالية، في وقت لا تعترف فيه بأفضلية الخطاب الأدبي. فهل يعني ذلك أن الأدبية على حد توصيف رولان بارت، لم تعد حكرا على الأدب ؟

أخشى أن أثيـر حفيظـة القـارئ إذا قلت إن الأدب الصِّرف بدأ يدخل المتاحف من أبوابها الضيقة في انتظـار أن تُـصرّع هذه الأبواب لتحتـضن الدراسـات الأدبيـة على أنها جزء من خبر كان، بعد أن يعم - إن آجلا أو عـاجلا - اسـتبدال الدراسـات الثقافية بالأدب ، والنقد الثقـافي بالنقـد الأدب . هذه حقيقـة، إذا لـم تتحقـق فـي القريب العاجل فهي لا محالة قادمة بعـد جيل أو جيلـين علـى أكثـر تقـدير، لأن تسارع وتيرة المستجدات المعرفية جعلت من الأدب والدراسات الأدبية قيمة أخـرى من الأنساق الدالة ثقافيا ، لما فـي ذلـك من ارتباط مباشر بين ما يبدع مـن هـذا الجنس الأدبي، وما تعكسه الحالة الوظيفية للقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بوصفها ظواهر ثقافية، مهدت لها معالم " تحليل الخطـاب " ، وبـدأ يـشق طريقهـا النقد الثقافي الذي بدأ بدوره يـسهم فـي تفتح براعم أوراقه، وذلـك بعـد أن غـار

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

جِذع الأدب، وخطّه الشيب، وبارت وسائل تحليله، وتآكلت قِوامه، من كُثْر لوك موضوعاته التي أصبحت تعلك كما يعلك الفرس لجامه .

لعلك تدرك معي ما يُستجد من معارف ، ولعلك تدرك أيضا الوتيرة السريعة للتحول من حال إلى حال أخرى بسرعة البرق ، حتى أصبح يسود في مفاهيم النسق المعرفي خارطة جديدة للفكر المعاصر عبر ممارسات دالة، يشكلها أمران كلاهما مرٌ ،إذا ما رام أصبح أَمَرّ من العَلْقَم : الأول نابع من إيديولوجية السلطة التي تعيش حالة مأزومة وتتسم دوماً بالتوتر والعشوائية والريبة، وأنا هنا لا أتحدث عن النظم الحاكمة ، فتلك جزء من السلطة ، وليس كلها ، أو أنها المقصودة بعينها . أما السلطة في منظورنا، والمراد بها هنا هي تمثلات كل أشكال القيادة، وعلى صعيد جميع البنيات الفاعلة سلبا أو إيجابا للمكون الحضاري، بدءا من سلطة الأسرة. والثاني يتمثل ثقافة النزول إلى الشارع وقد اعتبر هذا العامل من أخطر عوامل تشكل النسق الثقافي النابع من الشارع بوصفه الوعاء الجماعي الذي بدأ يفرض نفسه في تجسيد تعاليمه في أرض الواقع، وعلى كل المؤسسات، حتى أصبحت بعض الأمم في إسهامها الحضاري تقاس بما يملى عليها من ثقافة النزول إلى الشارع، وبعد أن باتت الرؤية الثقافية تستمد طاقتها من الشارع وليس من المثقف الذي تغيب نهارا، جِهارا؛ لأمر لا طائل فيه، ولا مزية في مطالبه التي ما فتئت تُردُّ في وجهه، أو لعل الأمر تجاوز ذلك، حين لحظنا المثقف يختفي بغتة، إما تقاعسا، أو تراجعاً، أو استسلاما، أو تشفيا، أو هروبا إلى الأمام ، مهما كان الأمر نجده قد امتحى ، وامحى، وذهب، أثره من على وجه الدور المنوط به ثقافيا في البناء، والإسهام في التشييد ، وأنا هنا لا أخص وطنا عربيا دون سواه .

والغريب في الأمر أننا نرى ثقافة النزول إلى الشارع توجه كبار المفكرين في واعيتنا الثقافية المهزومة التي زرعت جيل الفشل في اتخاذ المبادرة ، وسبق أن ناقشت هذا الوضع مع المفكر محمد أركون حين زارنا عدة مرات في البحرين وكانت لنا معه جلسات مطولة ، وقد أبدى امتعاضه مما آل إليه الوضع .

لقد أصبحت ثقافة الشارع تسير في خط متوازٍ ، تُناظر في طروحاتها ، وتروّض في فَرْض مطالبها ، الأمر الذي خلق نسقا ثقافيا هجينا في تساوقه مع المعطى المعرفي، وتداخلت فيه كل المعايير، بل وفي كثير من الأحيان نرى الشارع هو الذي يُملي على المفكر، أو المثقف، نوعا من التصور المعرفي، وهو ما نلحظه عندما يفرض تجمهرٌ ـ لوضع ما ـ نمطَه على التفكير، حين يأتي المفكر لاحقا للحدث ، وليس سابقا له . وسواء جاءه الحدث أو ذهب إليه المثقف، يبقى الوعي الفكري أو الثقافي في مثل هذه الحال يعيش على فتات صدى الآخر ، وأي آخر !..

وأنا هنا لا أمانع السعي فيما وراء مطالب الشعوب ، فذاك شأن آخر، خاصة إذا كانت هذه المطالب نبيلة؛ لخلق التوازن في الأهداف والمصالح، بآلياتها التي رأت فيها أنها مناسبة، بعدما آلت إليه الأوضاع بمختلف مكوناتها، وأزماتها، وتوقعاتها.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وليت الأمر يسير في تجمهرات الشارع على نحو ما نهجه تجمهر شارع باريس، حين استطاع الطلبة تغيير الوجه السياسي لفرنسا 1968، واندلعت الحركات الإصلاحية في فرنسا على شتى المجالات، وأكثر من ذلك غير حتى من مستوى التفكير، حيث ولد الإحباطُ — المتأتى من البنيوية بعد هذه الأحداث - حركةً فكريةً متجددةً أطلق عليها [ما بعد البنيوية] ، وقس على ذلك ما يجري في شوارع الأمم المسئولة عن صنع الفعل الحضاري .

لعل في مثل هذه الأوضاع تستطيع الذات السيميائية العارفة أن تقبض على العوامل المختمرة في ثنايا الذهنية الاجتماعية بوصفها علامة دالة ينبغي الكشف عنها ، وتصفح طياتها، والإفصاح عن المخبوء فيها . وقد نجد في مثل هذه التصرفات شكلا من أشكال علم العلامات التطبيقية ، من منظور أن التحليل السيميائي في دراساته الثقافية يهتم بما يجري في حياتنا المعاصرة بدءا من جميع سلوكيات المجتمع، ونظم حياته، بوصفها علامات دالة . ولا ننسى أن دي سيسير Saussureنفسه يؤكد أن الوقوع في مثل هذه الحالات لا يعني شيئا في حد ذاته ، بقدر ما يكتسب معانيه من خلال أسلوب العلاقات، أو التمييز بين ما هو متعارض أو متوافق . أضف إلى ذلك أن ما يصدر من أي مجتمع حتى لو كان الأمر تلقائيا هو جزء من مكونه لبناء تركيبته الحضارية ،وإذا كان ذلك كذلك فإن علم السيمياء يهتم بكل شيء بوصفه علامة.

في الأخير، نجدد لكم مجلة أيقونات شكرها على هذه المحاورة العلمية القيمة.

في الحقيقة أنا من يشكر فضلكم على تمكنكم من تقريب وجودي المعرفي إلى منبعه، ودُنُوِّي من موقعي الأصل ، كما أشكرك لأنك أنت من ربطتني مرة أخرى بزملائي من القراء في وطننا الحبيب، وشكرا .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com